

العدد ٣٠٠ نوفمبر سنة ١٩٢٠

دياوسكينية

بين لومبروزو واناطول فرانس

ولا نقالي اذا قلنا ان هذا الطبع عريق في الحيوان قبل الانسان ، فانك قد ترى حيوانين يتقابلان فيحدق احدهما صاحبه ويعطيل النظر الى عينيه كأنما يريد ان يستشف منهما نيته وكيف قوته . وهي عادة ترجع في الحيوان الى غريزة حب الذات والحيلة لسلامتها وترقى في الانسان وداء ذلك مراحل شتى ولا اظن هذا الميل وحيد في الانسان عينا أعني به الميل الى رؤية اولئك الذين يسمع عنهم ما يدهشه ويألف حسائته . فلا بد ان تكون نعمة صلة بين البواطن والمظاهر ، وبين قوى النفس وملامح الوجه ، اقرب مظاهرها الى الحس الفرق بين نظرة الصبا وغضون الشيخوخة ، واخفاها الفرق بين نظرة العالم ونظرة الجاهل والاختلاف بين سمة الرزاة وسمة الباردة . وعصق لافانيه منشيء القراءة الحديثة اذ يقول ان بين لحظات الفيلسوف ولحظات النجار الفارق تباعا فيمتطاع انكاره فان لم ينفذ العلم اليوم الى سر هذا التباين أو تعذر على الباحثين تقسيم حدوده وترتيب انواعه فليس لاحد منهم ان يحزم بانكاره أو يقلل من أهميته . وربما كان تقسيم تلك الحدود وترتيب تلك الانواع مستحيلا بيد ان الفرق فيها يبقى مع ذلك ثابتا محققا كشبوت الفرق بين الاجناس البشرية مع استحالة تمييزها بفواصل قاطعة في العصر الحاضر اشتغل لومبروزو العالم الايطالي الكبير بهذا البحث في عصرنا هذا والف فيه كتباً عدة أشهرها كتاب « الرجل المبقرى » وكتاب « الرجل المجرم » وفي كلا الكتابين ينبت المؤلف علامات في الوجوه والاجسام يستدل بها على المبقرية أو

من عادة الناس ان يربطوا بين بطن المرء وظاهره بسبب ، فاذا اعجبته أو أدهشته مقدرة قاتمة من رجل أو صفة شاذة في خلقه تاقوا الى رؤية وجهه ليعرفوا من تقاسيمه وبلاجه أي رجل هو ويشهدوا . كان تلك المقدرة أو الصفة من ذلك الوجه . كان لم يتمكنوا من رؤيته عيانا سألوا عن اوصافه ومجنوا عن صورته ، وكلنا يعلم مقدار أسف الادباء على انهم لا يرون اليوم صور ملوك العرب وشعرائهم وعظماهم ممثلة الى جانب سيرهم واخبارهم مقرونة بأشعارهم واثارهم . وهم لا يستفيدون من صورهم شيئا وانما هي المادة بل تكاد تقول الغريزة تشعهم الى الحاجة الى مشاهدتها واجالة النظر في مآرقها . وأنت قد تسمع المنفي يردد غناءه فتلتذه وتطرب له ولكنك اذا حال حائل بينك وبين وجهه استشرقت له ولم تقنع بسماع الصوت الذي هو يفتك منه وربما كان دمى الوجه لا يزيدك النظر اليه سرورا بفنائه بل قد تعرض عنه ان رأيت صامتا ولم تكن الانسان قابا يشغف بمعنى مجرد أو صفة محجوبة ولا غنى له عن تشخيصها وتجميعها في شكل من الاشكال المنظورة ولو شئنا ارددنا الى هذا الطبع فيه تخيل اربابه الاولين ورفق النصب والاصنام لعبادتهم بل رددنا اليه حبه للجمال في الوجوه الادمية لانتا معها ابعدا في تفسير الجمال فان نخرج به عن كونه مظهرا لتعلق به غريزة حب البقاء والخلود في نوع الانسان

وكذلك صور هؤلاء الجرمين فانها لا تشف عن طمع قوي أو غيظ سريع أو حيوية ضالة جهنمية وانما تشف عن بلادة الموت وخمود العقل . وكلما اندس منظرهم بين المناظر العادية التي تشاهد في كل يوم كان ذلك أدل على اختلاف طبائعهم وتميز قوسهم لان الذي يقترف افطع الاثام ولا تبدو على وجهها نارها جليلة شاخصة لا يكون مخلوقاً عادياً من عامة الناس يتساءل ان اتول فرانس : « اتقول مع مودسلي ان الجريمة تستكن في الدم ، وان في المجتمع طائفة مجرمة كما ان بين الفم شيهاً سوداء الرأس ، وان تميز الاولين من السهولة بحيث لا يختلف عن تميز تلك الشياء من قطعها ؟؟ انخوض في آراء رجل من أشد الباحثين اقتناعاً بمذهبه ؟؟ ذلك الايطالي مؤلف « الرجل المجرم » ؟؟

ثم يقول : « الحق ان للباحث الايطالي ان يوفق الى حصر جميع الجرمين في صنف معين . وعلة ذلك ان الجرمين بطبيعتهم يختلفون بعضهم عن بعض وان الاعم التي يجسمهم لا يحضر في ذهن شيئاً واضحاً . والسنفور لومبروزو لم يفكر في تعريف كلمة المجرم قلبيذا تراه قبلها على معناها الدارج وبهذا التي تسمى الرجل مجرماً اذا اقترف بدعا خطيراً في الاداب وشذوفاً عن أحكام الشريعة . ولما كانت الشرائع كثيرة والاداب غير محدودة فقد صارت اصناف الجرمين بلا قيد ولا حده والواقع ان ما يسميه السنفور لومبروزو مجرماً ان هو الا مرادف لكلمة السجين ولا بد ان يتشابه السجناء فان تشابههم في المعيشة يحدث بينهم على الاقل تماثلاً يميزهم عن يعيشون احراراً . وقل مثل ذلك في جميع الطوائف

طبيعة الاجرام . ولقد اسرسل في التعميم حتى تناول الجسم جارحة جارحة واظهر ما يتوسعه فيها من الخواص للميزة . فاقى بمحقق لا يقول انها كل الصواب ولكننا لاراهنا كذلك كل الخطأ . قال أي حديتري تقيد حقائقه وتجدي ملاحظاته ؟؟

اسأل هذا السؤال وبين يدي صور اربعة من كبار الجرمين : اربعة لم نسمع بابشع من جرائمهم وانامهم في بلدنا هنا وفي وقتنا هذا — تهافت الناس على صورهم كما يتهاقنون على صور العظماء . لاحبابي اقتنأنا ولا اعجاباً باصحابها بل لكي يروا كيف تكون تلك الوجوه التي تخفى وراءها قلوب تعيث فيها شياطين الجرائم واسرار الدماء وتستقر فيها الخيف في حاوية عميقة من الشرور — يسألون انفسهم : انكون تلك الوجوه كوجوه الناس ؟؟ تلك هي صور المرأتين سكيئة ورياء وزوجيهما محمد عبدالعال وحسب الله سعيد ، وهم المهمون في جرائم اخفاء النساء بالاسكندرية . فلماذا يتوسم الناظر فيها ؟؟

يخيل الى بعض القراء انه سيرى في تلك الصور وجوهاً يفر منها هلعاً ورعباً كما يفر من أشباح جرائمهم وبشاعة قوسهم . وهذا هو مصدر الخطأ في افكار القراصة وقي العلاقة بين ميات المرء وأعماله . فقد يقترف المجرم اثناع الكبار ثم لا يكون ذلك متأتياً عن نفس مرعبة تغلي بالشر وتوثب الى العدوان بل يكون كل ما في الامر انها نفس ميتة يربها الناظر فينقبض لمراها كما ينقبض لمراى العظام النخرة والجثث المشوذة ، فاذا لم يجد في صورها من بواحت الرعب والملع مثل ماتبعته في خياله جرائمها وذنوبها توهم الخطأ في آراء القائلين بالقراصة وخفي عنه مصدر الخطأ من تصوره

المستقلة بأزيائها فانتما قد تعرف افرادها وان خلعوا
ملايسهم

وفي هذا القول الذي يقرره اشهر المنسكبين
اليوم جانب صحيح وهو تعذر الفصل بين
طبقات المجرمين وحصرهم في صنف واحد . اما
قوله ان التشابه بين مجرم ومجرم يأتي من تشابه
المعيشة في السجن فرأى سطحي يعيد عن الحقيقة
لان الاستعداد للقتل أو السرقة أولى بأن يوجد
الشبه من الاشتراك في المظن والممكن سنة أو عدة
سنين

على ان اتناول فرائس يوغل في الانكار الى
ابعد مداه فيقول « ان الجريمة في اصلها ملتبسة
بالفضيلة وهي لم تنفصل عنها الى اليوم بين القبائل
السوداء في اواسط افريقيا . فهناك كان يقتل الملك
متيزاً ملك طوارج ثلاثاً أو أربعاً من نسائه كل يوم
وقد امر باحدى نسائه أن تقتل لانها أجمعت بتقديم
زهرة اليه . على ان متيزاً هذا حين اتصل بالانجليز
اظهر ذكاء عجيبي واستعداداً يذكر لهم افكار
الشعوب المتحضرة . ولعمري كيف نستطيع
الانكار ؟ ان الطبيعة هي التي تلم الجريمة .
فالحيوانات تقتل مثيلاتها لتلتهمها أو غيرة منها أو
لغير سبب قط . وان ينها لعددا عظيماً من المجرمين
تلك هي الجريمة فان كانت العجارات المسكينه
غير مسؤولة عنها فلا مناص من اتهام الطبيعة »
هنا نرى ان تعميم لوم بروزومها توسع فيه اجدر
بالتأني من تعميم اتناول فرائس لان الاول يقول شيئاً
والثاني لا يقول

وليس يزعم أحد ان الصفات التي يذكرها
العلامة الايطالي مستغنى الحكومات عن الشهود
والشرائع والتحقيقات وتتخذ أدلة ينص عليها في
القوانين . بل لا انكر ان صور المجرمين الذين
تسلكهم عنهم قد تمر دون أن يلتفت اليها ولا سيما
صورتي الرجلين . فانت بلاذة الشر على وجهي
للرايتين اظهر منها على وجهي زوجيهما واثرا لاهل
فيهما اقبسح وابلغ . ولكن الامر الذي يشك فيه
ان بلاذة الحسن ظاهرة على وجوههم جميعاً ظهوراً
لا يتخطاه النظر أحياناً الا لان البلاذة من طبيعتها
لا تلفت الاقنار . ولا حاجة الى أكثر من هذا الاثر
البارز للدلالة على ما وراءه من النفوس

عباس محمود العقاد